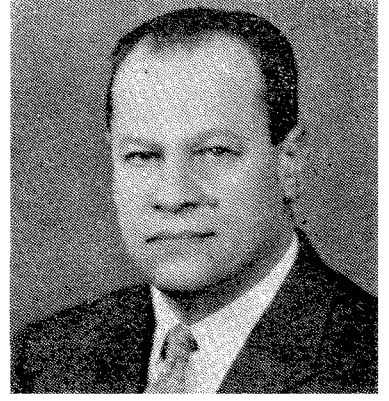


محاولة لفهم رواية «الطريق»



الصمت .. والجائعون إلى الحرية

بقلم صبري حافظ

(1) مقدمة ..

فحين تتحول الحياة الى مشكلة لا يصبح الانسان شخصا معينا ، بل مجرد انسان ، ليس هو شخصا بالذات يتميز عن سائر الناس بتفاصيله الخاصة وذاتيته ، ولهذا نخفي التفاصيل ويختفي السرد ، وتتصدر المناقشة كل العوامل الاخرى .. اذ ان هم الكاتب الرئيسي هنا هو ابراز المشكلة التي تحتل المكان الرئيسي من لوحة التناقضات المجتمعية . ولهذا فان المعالجة الفنية لا تقدم في هذه الحالة صورة واقعية للواقع ، او معاقرة فنية لاحدى شرائحه او قضاياها ، ولكنها تقدم من خلال الرواية ، محاولة لتلخيص الواقع كدل ، لفسره بأسلوب فني على ان يقول هنا موطن الداء ، على ان يمنح نفسه بطريقة اكثر وضوحا .. على ان يقول كل هذا من خلال احداث شديدة البساطة وممكنة الحدوث .. خاصة وان « الجديد دائما ليس هو الموضوع الذي لم يطرق من قبل ، بل هو الفنان . والفنان انسان وعصر وحضارة . وكل جيل يعطى وجهة نظره في موضوعات ثابتة في جميع الأزمان » ويحاول ان يقدم من خلال هذه الموضوعات رؤاه المختلفة للواقع ، وكلما تجدد هذا الواقع وتغير ، تجددت المعالجة الفنية له وتغيرت هي الاخرى ، لذلك يقول نجيب « حين بدأت الافكار والاحساس بها يشغلني ، لم تعد البيئة هنا ولا الاشخاص ولا الاحداث مطلوبة لذاتها ، الشخصية صارت اقرب الى الرمز او النموذج ، والبيئة لم تعد تعرض بتفاصيلها ، بل صارت اشبه بالديكور الحديث . والاحداث يعتمد في اختيارها على بلورة الافكار الرئيسية .. والخطورة هنا ان تفرض الفكرة نفسها على الواقع فلا تتلاءم معه . او تضطر لان تخلق له واقعا خارجيا (2) ولكن حين تتبع الفكرة من الواقع ونتيجة لمعايشة خصبة له ، لا يوجد التناقض بينها وبين الواقع حين تحاول التجسد في شكل من اشكاله » و « في محاولاتي الاخيرة تتبع افكاري من الواقع ، لانه هو الذي يوحى بها ، وبالتالي فانها تعود اليه دون ان يكون هناك فرض او تناقض » .

تؤكد (الطريق) .. رواية نجيب محفوظ الاخيرة ، ان كاتبها ما زال اكثر كتاب مصر التصاقا بالواقع اليومي الذي يصدر عنه ، واعمقهم فهما له ، واخلصهم موافقة لخطاه . فعبر مراحل تطوره الروائي المختلفة ، اثنى نجيب محفوظ هذه الحقيقة ودعمها بالرواية تسارة وبالاقتصوصة تارة اخرى . واثبت ان للفن دورا فعلا في تزويد احساس المتلقي بكل ما في الواقع من اخطاء ، وفي تعميق وعيه بشتى التناقضات التي يرتعش بها وجدان هذا الواقع . اذ اهتم نجيب دائما باكثر قضايا الواقع الحاحا للمعالجة ، ومركزها في المكان المحوري من كل اعماله الفنية . ومن هنا كان من الصعب ان نصل الى فهم حقيقي لاعمال هذا الكاتب الكبير دون ربطه بالواقع الموضوعي الذي ترتوي منه كتاباته ، تنهل من اكثر اباره عمقا . ودون فهم هذا الواقع فهما عميقا وشاملا ، يلقي دقات من الضوء على هذه الاعمال ، ويساعد في الوقوف على وجهها الحقيقي . ولهذا السبب ذاته ، ولشدة التصاق الكاتب بالمناح الحضاري الذي يصدر عنه ، وقع اغلب المفسرين لاعماله من غير المصريين بصفة خاصة ، في وهاد الفصل بين العمل والارض الحضارية التي ارتوى منها ، ومن ثم لاحت لهم هذه الاعمال العظيمة ، شديدة الافراق في العتب واليتافيزيقا . ومن اسف ان كثيرا من الكتاب المصريين وقعوا في هذا الخطأ . وبدت لهم اعمال هذا الكاتب العظيم وكأنها اشياء مجردة ومنبثقة الصلة بارض الواقع ، واخذوا يدسون بين تضاميتها تفسيرات لا يمكن ان نوحى بها النظرة الموضوعية السليمة اليها .

وقد سبق لنجيب محفوظ ان شجب كافة هذه التفسيرات المهومة في صحراوات التجريد ، حينما قال في معرض الحديث عن اتجاهه الروائي الجديد (1) ان « الاتجاه الحديث في الرواية الاوروبية ، يجعل للفلسفة الميتافيزيقية مكانا واسعا فيها » وان « هذه الظاهرة دليل على ازمة الحضارة الاوروبية ، فعندما يفلس الانسان ، وعندما تفلس الحضارة ، تتذكر الله » .. اما واقعا المصري فان له فيه نظرة جد مختلفة ، ولذلك يقول « لا اعتقد ان تجاربي الجديدة في الرواية لها صلة بالازمة الاوروبية ، فهذه ازمة خاصة جدا . وما زال مجال الرواية متسعا امام الروائيين في كثير من دول العالم التي تملك فلسفة حياة ، وعقيدة انسانية » .. هكذا وبوضوح شديد يشجب نجيب محفوظ اي محاولة لاسدال اردية ميتافيزيقية او عبثية على اتجاهه الروائي في المرحلة الاخيرة (2) مؤكدا ان جدة الشكل في روايات هذه المرحلة وليدة جدة الواقع الذي يعالجه وجدة المضمون الذي تحتويه ،

(1) نجيب محفوظ ، اتجاهي الجديد ومسقبل الرواية ، مجلة الكاتب ،

فبراير 1964 .

(2) (اولاد حارثنا) و (اللص والكلاب) و (السمطان والخبريف)

و (الطريق) .

يؤكد نجيب محفوظ في هذه الكلمات حقيقيين .. اولهما انه شديد الالتصاق بالواقع المصري المعاصر ، وان معالجته لهذا الواقع في ظل ظروفه التاريخية ، هي التي استلزمت هذا الاطار من الواقعية الرمزية التي لا تقدم فيها الاحداث الواقعية لذاتها ، بل لما وراءها من رموز يحاول الكاتب بشتى الصور ان يشي لنا بها . وثانيتهما .. انه يعالج في روايات هذه المرحلة افكارا منبثقة عن معايشة حقيقية خصبة لجزئيات الواقع . وعن تفهم واع لاهم قضاياها ومشاكله .. واذا اضفنا الى هذا كله اعتراف نجيب الصريح بان « هناك قضية كانت تلح علي دائما ، وهي قضية الالتزام .. ومع انه من الصعب جدا تصور وجود كاتب غير ملتزم ، او حتى وجود مواطن غير ملتزم . الا ان الالتزام بمعناه الاصطلاحي هو الالتزام بموقف نقدي من الحياة » . فاننا نستطيع ان نخرج من روايات هذه المرحلة برؤية الكاتب لجزئيات واقفنا المعاصر ، ولوجهة نظره في كافة قضاياها ، وان نشر على الوجه الحقيقي لرمائيات

(3) كما فعل كافكا في اغلب رواياته واقاصيصه .

تكمه واستخلاصه من تحت رغام الصمت واللاحرية .. وبذلك يكون هذا الاطار الفني الذي اختاره نجيب للافضاء من خلاله عما يدور في واقعا ، اكثر الاطر الفنية تقدمية وثورية واعمقها تلخيصا لكل ما في الواقع من قضايا .. لانه الاطار الوحيد الذي تلوح خلاله رؤية الكاتب الواضحة لكافة ما في الواقع من قضايا ، وايضا وجهة نظره فيها . ولنتجاوز الان عتبات المقدمات لنتناول الرواية ذاتها .. ولنسرى كيف انها بحق تعالج افكارا نابغة عن المعاشية الخصبة للواقع ، ومرتدية في الان نفسه احدانا منحوتة من جسد هذا الواقع ، وشرائع مقتطعة منه .

(٢) الاحداث ... ماذا وراءها !؟

من البداية اقول ان ثمة شركا منصوبا امام ناقد هذه الرواية ، اذ ان بناءها الفني الشديد التعقيد ، يضع الناقد مباشرة امام ذلك التساؤل : ترى ، عن أي شيء يبحث صابر ؟ او من هو سيد سييد الرحيمي ؟ .. ومن ثم يزج به في سرداب قد يفضي الى لا شيء . اذ ان افتراض معادل رياضي ما لشخصية هذا الاب المفقود ، ما يلبث ان يلقي بظلاله الكثيفة على كل ما يدور داخل الرواية من احداث . يفسرها على ان تقول ما يؤكد ذلك الافتراض ومن ثم قد يستنتجها بما لا توحي به النظرة الموضوعية المصوبة اليها ضمن الاطار المجتمعي الذي صدرت عنه .. وفي الرواية الى جانب هذا الشرك الرئيسي شرك آخر ينحت ملامحه من محاولة العودة بانفماس صابر في الرذيلة الى ماضيه « الملسوث بالدعارة والجريمة » (٨) انطلاقا من الدعوة القديمة التي صفت الطبيعة عنوة بأدب نجيب محفوظ .. وشرك ثالث يعثر على ملامحه عند درس الرواية بين زمرة روايات البحث التقليدية .. وابع تنصبه التهويمات القائلة ببوليسية الرواية .. وحتى نتجنب الوقوع في هذه الفخاخ سنحاول ان نتقرب من الرواية مستعينين كلما امكن ذلك بنصوص منها . حتى نستطيع محاولتنا التفسيرية لها ان نظهر مدعمة بالنصوص ، وحتى لا يبدو فيها اي اثر لاسدال اردية تفسيرية من خارج الرواية على ما يدور داخلها من احداث .

ففي (الطريق) معاقرة رائحة لجزيئات الواقع المتناهية الصغر ، والبشوة بذكاء ومهارة نادرين حول خط الاحداث الرئيسية . مما يعمق هذه الاحداث ويشربها بالدلالات . فتتمكن الاحداث البسيطة من ان تشي لنا بكافة الانكار الاساسية التي يريد الكاتب الكبير ان يقدمها لقارئة ، ومعها معالجته ورؤيته لاهم القضايا التي يرتعش بها وجدان الواقع . وتعمق الناقد لهذه الجزئيات المنشورة بذكاء حول خط الاحداث الرئيسي ، هو الذي سيقع به حتما على ملامح الازمة الحضارية التي يريد نجيب محفوظ ان يقدمها لنا .. اعني ازمة الحرية .. فاذا كانت (اللص والكلاب) اكثر روايات المرحلة الاخيرة وضوحا في معالجتها لهذه الازمة ، فان (الطريق) اكثر روايات هذه المرحلة تراء .. فقد استطاعت ان تقول بأسلوب فني ان ثمة صمتا شديدا يحاصرنا .. وان ثمة جوعا شديدا الى الحرية . وان تترك في الأعماق منا اثرا وجدانيا ينحنت ملامحه من الحالة الحسية التي تخلفها القراءة الواعية للرواية ، حالة الضيق الشديد باجحاف الواقع ، والاحساس بان كل الظروف التي حاصرت خطي صابر وكبيلتها انما تكرر نفسها بصورة مذهلة داخل كل منا .. هذه الحالة التي تشبه الى درجة كبيرة ، الحالة الحسية التي عاناها لينين وهو طالب شاب بعد قراءته لرائعة تشيكوف (العنبر رقم ٦) .. اذ صحا ليلتها من نومه مفزوعا ، واخذ يذرع حجرته جيئة وذهابا ، وفي الصباح ارسل خطابا الى اخته يقول فيه « عندما انتهيت من قراءتها مساء امس ، شعرت بالرعب ، ولم استطع ان اغادر غرفتي ، بل قمت وخرجت ، كان شعوري انني اصبحت سجيناً في العنبر رقم ٦ » .. ولنحاول الان الاقتراب من احداث الرواية .

فمع انفاس الخريف تبدأ احداث الرواية .. مع انفاس الخريف

هذه المرحلة ، ونستخلصه من تحت ركام التفسيرات العبثية والميتافيزيقية ووصفة عامة فاننا نقول ان (الطريق) شديدة الانساق بواقعا المصري المعاصر من جهة ، وبروايات المرحلة الجديدة عند نجيب محفوظ من جهة اخرى .. فينما وبين هذه الروايات الثلاث اكثر من وشيجة وان كانت اكثر التصاقا بسابقتها (السمان والخريف) .. اذ تعبير صدورنا شيئا واعيا وعميقا عن الفترة التالية تاريخيا للفترة التي صدرت تعبيراً عنها (السمان والخريف) . ولاندراج الرواية تحت هذه المرحلة الروائية ، فاننا نستطيع ان نرصد عبرها كافة سمات هذه المرحلة ({) من استعمال الضمائر الثلاثة في عملية انقاص الروائي ، الى التركيز على المتولوج الداخلي باعتباره وسيلة فعالة في كشف اعماق الشخصية والحدث على السواء ، الى تقلص الاسلوب السرد في عملية القص الروائي ، الى جدة الرؤية الاستباقية لابعاد الشخصية ، الى التداخل التوحي في الازمنة والتابع من بناء الرواية الفني الشديد النضوج .. الى شاعرية اللفظة اسفرت عن وجهها الكامل في (الطريق) بالدرجة التي تدفنا الى تسمية هذه الرواية .. بقصيدة شعر عظيمة .. اذ وصل بناؤها اللغوي الى الدرجة التي ينطبق عليها قول فاليري : ليس يمكننا ان نفر كلمة واحدة من كلماتها دون ان يختل بناؤها الفني ككل .. الى اندراج الرواية تحت ما اسميناه برواية البطل الواحد .

وهنا يجب ان نترتب قليلا لنناقش هذه السمة ، رواية البطل الواحد ، خاصة وان هذه السمة قد ارتبطت تاريخيا بمحاولة الفن التديمية لتأييد صعود الطبقة البرجوازية ، والتركيز على القيم الفردية ، وعلى عظمة الانسان الواحد ، من خلال تركيز العمل الروائي على شخصية العصامي .. النموذج المصفى لهذه الطبقة في مرحلة صعودها ، والذي يقف بكل فضائله في مقابل السيد الاقطاعي المتختم شرا ورذيلة .. وبرز مثال على ذلك رائحة دانيال ديفو (روبنسن كروزو) . فهل جاء تركيز نجيب محفوظ على شخصية روائية واحدة ضمن هذا الخط ؟ ومن البداية نستطيع ان نقول لا .. ويؤيد هذا ان المرحلة الراهنة في واقعا المجتمعي ليست هي حاجة السى تأكيد صعود البرجوازية بأي حال ، فقد تضخمت هذه الطبقة بصورة واضحة ، وملكت زمام السيطرة تماما . وبرزت الحاجة واضحة الى فضح تيارات التفسخ والتهور والانسانية السارية في اعماقها ، والى التنبيه السى جدران الصمت التي تسيج كل شيء ، والى قضبان السجن الرئية واللامرئية التي تحول دون الحقيقة والسفور . ومن ثم يجيء التركيز على البطل الواحد في هذه الحالة ضمن اطار محاولة الكاتب لتلخيص الواقع ، لاختيار اكثر النماذج دلالة عليه ، واخصها تعبيراً عن كل ما يدور داخله من قضايا ، وافصاحا عن كافة ما فيه من ضغوط ، وعرضها داخل هذا الاطار الجديد من الواقعية الرمزية التي يؤكد نجيب خلالها ان سعيد مهران (٥) وعيسى الدبساغ (٦) وصابر سيد سييد الرحيمي .. ليسوا سوى صور منا .. مما يجول بخاطرنا .. وان بحثهم عن حقيقتهم ، وصراهم ضد القيم الشائعة ، جزء من بحثنا وصراعنا .. بل ان بعضا منهم يعبرون عما لا نستطيع نحن ، ولاسياب متشابكة ، الافضاء به .. ولما كان حديثنا هنا قاصرا على رواية (الطريق) وحدها (٧) فاننا نقول ان نجيب محفوظ يجسد من خلال صابر (بطل هذه الرواية) حالة كل شبان جيلنا ، الباحثين عن مجهول لا يدرون بالضبط كنهه ، الجائعين الى الحرية والكرامة والسلام ، التأثيرين على صمت الواقع وركوده ، الممزقين بين وعيهم بحقيقة هذا الواقع وعجزهم عن فعل شيء ازاءها ، الراغبين في تحرير وجه هذا الواقع من كل الشروط الانسانية التي

(٤) سبق ان بينا هذه السمات بالتفصيل في مقالنا (الاتجاه الروائي

الجديد عند نجيب محفوظ) ، الاداب ، نوفمبر ١٩٦٣ .

(٥) بطل رواية نجيب محفوظ (اللص والكلاب) (٦) بطل رواية

نجيب محفوظ (السمان والخريف) .

(٧) سبق لنا الحديث عن (اللص والكلاب) و (السمان والخريف)

في الاداب ، نوفمبر وديسمبر ١٩٦٣ على الترتيب .

(٨) نجيب محفوظ ، (الطريق) ، مطبوعات مكتبة مصر ، القاهرة ،

مارس ١٩٦٤ ، ص ١٨

شمانتهم بك . ومذاق الحياة امسى كالتراب)) (ص ٥) . . . منذ اللحظة الاولى يقدم الواقع الخارجي التحديات ، ويؤكد في الوقت نفسه تمايز البطل عن بقية الموجودين حوله . خاصة وان هؤلاء الموجودين حوله ليسوا أكثر ((من ناجر مخدرات الى برمجي ومن بلطجي السى فواد)) (ص ٦) . . ذلك التمايز الذي يعرب عنه كونه اكثر وعيا من بقية المحيطين به بماساوية هذا الواقع وبجوه الخريفي الكتيب . . ومن الصحوة المفاجئة على الواقع اللامألوف الذي ينحت لالفته من تفسير الواقع الداخلي للبطل ، بعد صحوته على الحقيقة الدامية ، ومن انعكاس هذا التغير على رؤيته للواقع الخارجي . . ف ((ابتداء من اليوم سيرعف الحياة على حقيقتها ، انه وحيد ، بلا مال ولا عمل ولا اهل . ولم يبق له اذ امل غريب كالحلم ، انه مطالب منذ اليوم بتأمين حياته ، وهي مسؤولة لم يتحملها من قبل ، اذ نهضت بها امة وحدها ، ففرغ هو طول الوقت لامتع شبابه اليافع)) (ص ٧) . . هكذا يصحو صابر فجأة على واقع لا مألوف . . وحتى لواقع الخارجي الذي كان مفروضا ان يحتفظ بحيده ، فقد الفته العادية ودارت فيه احداث لا متوقعة . . ((وفي نهاية اليوم تعانق رجل وامرأة بحرارة لا تناسب الوقت المبكر)) (ص ٧) . . وبذلك انعدمت اللفة تماما بين الانسان والواقع الخارجي الذي يتعامل معه ، وانتهى الانسجام بينهما عقب صحوته المفاجئة على الحقيقة الخريفية لهذا الواقع . . عقب انزياح الستار فجأة عن كسل ما خلفه من خبايا واسرار . لذلك فان انعدام اللفة في (الطريق) لا تتم بين البطل والاشياء التي يتعامل معها ، كما هو الحال عند الان روبر جريه ، بل بينه والعلاقات الانسانية التي يعيش ضمنها ، وبينه والواقع الموضوعي لكل . الواقع الفائق للموضوعية والتنقية منه ابسط شروطه الانسانية . . الحرية والكرامة والسلام . . الحب والطمأنينة والعمل . . فكل من حوله ((مهرة في خداع الناس بمظاهرهم)) (ص ١٩) . . يداري كل منهم بالافعة والمساحيق حقيقة الزيف والخواء الذي يعبق في الاعماق منه .

وسط هذا الواقع الشديد الصلابة يختلط بالحقيقة الحلم . . ((والان اين هي الحقيقة واين هو الحلم ؟ امك التي ما تزال نبرتها تتردد في اذنك قد ماتت ، وابوك الميت يبعث في الحياة . . وانت المفلس المطارد بماض ملوث بالدعارة والجريمة تتطلع بمعجزة السى الحربية والكرامة والسلام)) (ص ١٨) . . ويلجأ صابر الى البحث عن ابيه المفقود الذي يمثل له كل القيم المفقودة في الواقع . . الحرية والكرامة والسلام . . ولكن الجواب في كل مرة كان يجيبه كجدار السجن ((غير معروف لدينا)) (ص ٢٠) . . لانه كمعادل للقيم المفقودة فقد ملامحه من طول القياب . . حتى العارف بالله الهائم في اجواء البخور والفيقيات (ص ٢١) لم يتعرف على اي شيء منه وان حدس وجوده . ويعانق اليأس كل محاولات البحث في الاسكندرية ، مراتع الصبا والماضي واللادعي ، ومن ثم فانه ينزح الى القاهرة بعد ان يبيع كل متعلقاته في الاسكندرية . . المنزل والاثاث والاصدقاء والماضي . او بمعنى اكثر وضوحا ، بعد ان ينزع جذوره تماما من ضبابية جوها الخريفي ومن ماضيه الملوث بالاثم والدعارة واللاقيم . . وبعد ان نزع جذوره من تربتها تماما . . لاحت له والقطار يرحب الارض مبتعدا كحلم خريفي انقضى . . ((رآها مدينة من الاطياف مفروسة في حلم الخريف تحث مظلة هائلة من السحب ، وهواء بارد معبق بمطلع نوفمبر يجوب شوارعها الانيقة شبه الخالية . وودعها هي وامه وذكريات ربع قرن من الزمان بزفرة طويلة ساخنة)) (ص ٢٥) .

وفي القاهرة ، يعرب الواقع عن وجه جديد منذ اللحظة الاولى . . ((وانت اليوم وحيد بلا اهل ولا اصدقاء كأنك من جنس غريب . وهالة الزحام في محطة مصر فالح عليه شعور بالوحدة . ونازعته نفسه السى العودة في اول قطار)) (ص ٢٥) . . ان هذه الاحاسيس الجديدة تماما على صابر تولد معلنة عن ميلاده الجديد . . بعد ان دفن الماضي كله في اقصى الشمال . . وبعد بحث قصير يعثر على مستقره في هذا الواقع الجديد . . فندق ((القاهرة)) . . بكل ما يوحي به الاسم من

يصحو صابر وقد احتكت اصابعه بشيء شديد الصلابة . . يصحو على جهامة الواقع وعمبوسه كما صحا من قبله عيسى الدباغ وسعيد مهراي وكما صحا جوزيف ك (٩) وجريجور سامسا (١٠) . . وللصحوة والتوقيت دلالتان . . فاذا كانت صحوة ك اوسامسا بطلي كافكا ، هي صحوة دامية على لا معنى للواقع ولا جدوى الوجود فيه ، فان صحوة صابر هي صحوة التوق الى ان يهب هذا الواقع المعنى ، ان يفسره على ان يصرخ هنا مكان الداء . . وهذه هي الاسباب الراسمة للزامة . ودلالة الصحوة هنا تعني بداية الوعي بتناقضات الواقع ، او ذروة الوعي بهذه التناقضات . وتعني في الان نفسه ان الواقع قد وصل الى مرحلة من التآزم يستحيل معها الوقوف بلا مبالاة حياله . اما دلالة التوقيت فانها تعانق دلالة الصحوة وتثريها ، فالخريف هو الفصل الواعد بتباشير الجذب . . ينزع عن الاشجار اوراقها ، واشيا بمقدم الشتاء السني سيعري كل شيء ، ينشر الجفاف بين طبقات الحياة .

والصحوة على هذا الواقع الخريفي شديدة الرعب ، لانها تعي كل ما يعد به هذا الواقع من اجذاب وذبول اكيدين ، وهي في الوقت نفسه عاجزة عن صد جحافل الخراب الراكضة فوق اشلاء الواقع المأزوم . . ومن ثم فانها تعرب عن نفسها خلال ايماءات جزئية نافذة لما في هذا الواقع من تفسخ . ويفرض هذا الموقف المأزوم على الرواية توترا عنيفا ينشر الازمة داخل كل جزئياتها . ومنذ اللحظات الاولى ، عانق هذا التوتر الصحوة المفاجئة على جهامة الواقع وغرابته ، وبدأ العالم الخارجي يقدم تحدياته المستمرة لبطل الرواية عقب فقدانه الاليم لامه التي كان يعيش في فيئها ويمارس كل حاجاته تحت استار حمايتها وحونها ((يقولون لم يقف هكذا غريبا في منظره وملبسه كأنه ليس واحدا منا ؟ لم نحته امه عن بيئته ثم تركته وحيدا ؟ انهم لا يعزونك ولكنهم يدارون

(٩) بطل روايتي كافكا (القلمة) و (المحاكمة) .

(١٠) بطل رواية كافكا (المسخ) .

بعد دراسات وابحث استغرقت عدة سنوات ، تمكن علماء الكيمياء

من اكتشاف :

DUO SUISSE

الدواء العجيب الذي يزيل قشرة الرأس والحكاك

وبعض تساقط الشعر

مختبرات ديو سويس - سويسرا

الوكلاء العامون والموزعون

مئيمنة - شارع البرلمان ، بيروت

فسرت اكاذيبه بطيبة طوية صرخ في اعماقه « لعنة الله على الكذب . لذلك يفقد حديث الهام معناه كأنه الصمت » (ص ٩٠) . . ذلك لان هذا الحديث ليس مبنيا على اساس العاقرة الحقيقية لجزئيات الواقع العاش ، بل وليد الرغبة الحلمية في تجاوز الزمان ، لمايشة الواقع المرجو . . الواقع كما ينبغي ان يكون . . كما يلوح في الحلم رائعا وواعدا بالحياة الحقيقية المكتظة بالحرية والكرامة والسلام والطمانينة والعمل .

وعلى طول الرواية ، يماقن الواقع الحلم ، كريمة والهيام ، تدور المقارنة بينهما دائما ، المزاوجة بينهما دائما ، لانهما وجهها الواقع المنصقان المتنافران ايدا . . الواقع كما هو كائن ، وكما ينبغي ان يكون . . « ولكنه مع الهام تعذبه كريمة ومع كريمة تعذبه الهام ، والتوحيد بينهما امنية لا يجرؤ على تمنيتها (ص ٨٨) . . فلم يشع لحظة مع الهام دون ان تخطر على باله كريمة ، فالحلم لا يبعد الواقع وان ابعد هذا الواقع الحلم بعض الشيء . . اذ نادرا ما يتذكر الهام وهو مع كريمة . . ولهذا التناقض الحاد كانت استحالة الجمع او التوفيق بينهما . غير انه في كلتا الحالتين ، المايشة الحقيقية للواقع كما هو كائن ، والمايشة الحلمية للواقع كما ينبغي ان يكون . . كانت اطياف الاب المفقود تحوم بالحاح . . وان ارتبط بالحلم اكثر لافتقاده تاما في الواقع . . اذ لاح له في احد احلامه ابا لالهام .

ويستمر تمزق صابر بين الحالتين . . . الواقع متجسدا في كريمة يقدم حلولا دائمية لازمة تقود الى الجريمة « كريمة مثلك تمرغت في التراب طويلا ، وهما يتفاهمان حتى على البعد . وفي اعماق لحظات الحب الحارة تتماثل انفاسها لتهمس في اذنه . . متى تختفي العقبة التي تهدد حينئذ . . فيمسح رعب الوعي كصفعة مباغتة وتهمس تضاعف الظلام بالجريمة » (ص ٩٠) . . تلك الجريمة التي بدا تجنبها مستحيلا الا في حالة واحدة فقط . . هي حالة وجود الاب المفقود . . حالة تخلص الواقع من وجهه اللانساني الكئيب . والواقع في الان نفسه شديد التوتر ولا يقبل التسوية بأي حال . ذلك لان اي تسوية في مواجهته يعني التسليم بشروطه المحففة . . يعني استمرار الوجه الاعاقل يمارس فعاليتها . . يستنزف حيوية كريمة وخصوبتها ، اذ يمتص نضارتها الانتظار الطويل للتحرر من ذلك الذي يصلح وجهه رمزا للموت ، المسيطر وحده على كريمة ، والمالك للفندق ، ولمسير صابر ، ولكل شيء . . انتظار ان يموت ، ولكنه مصر على ان يستل نضارتها ، قبل ان يستل الموت من بين جنباته الحياة . . ويلتهم الانتظار في الان نفسه نقود صابر . . يطرده من فوق وجه هذا الواقع ، ليضطره الى العودة من جديد الى الارض التي عاش فوقها آمنا . . الاسكندرية . . لانسه عاش جاهلا بالحقيقة . . ولكنه ان عاد اليها اليوم فلن يستشعر فيها الاطمئنان والرغد الذي عاشه من قبل . . فقد ماتت الام التي عاش في فيئها . . وتفتح وعيه على حقيقة الاب المفقود الواعد بالحرية والكرامة والسلام . . وعلى حقيقة كريمة الراضحة تحت اغلال خليل ابو النجا ، والمالكة الحقيقية لكل شيء « هذا الفندق . . والمال . . كسل شيء باسمي انا . . والرجل هو المتصرف في ماله طالما انه على قيد الحياة » (ص ٦٤) . . وعلى حقيقة الهام الواعدة بالمجزات « آه . . ليس لحنا جميلا فحسب . . معجزة ايضا . . هل كنت تحلم بذلك ! . . رأس مال بلا سرفة ولا جريمة . . ومعها الحب الحقيقي . . اذن رد الحياة الى عم خليل واستيقظ من الكابوس » (ص ١٤٧) . . وعلى يقظته المفاجئة على حقيقة الواقع ووعيه الجزئي بها . . « واحيانا يخيل اليه ان الصمت يخلق العالم . وكثيرا ما يذكره ذلك الصمت بالصمت المصاحب لارتفاع الموجة وتجمعها قبل ان تنفجر مرعدة مزبدة » (ص ٧٠) . . الواقع الذي لا شيء فيه . . « لا شيء الا الظلام وصوت الصمت » (ص ١٠٦) . . هذا هو ما يقدمه الواقع . . تحديات مستمرة ما تلبث ان تفضي الى الجريمة . اما الحلم . . الواقع كما ينبغي ان يكون . . ففسد وعده

— التتمة على الصفحة ٥٩ —

دلالات تلخيصية . . . وصاحب هذا الفندق ، او بمعنى اخر صاحب « القاهرة » هو خليل ابو النجا ، بكل دلالات القدم التي ينقشها الاسم . وبوجهه المفضن الكئيب الذي يصلح رمزا للموت « انت سر من الاسرار يا عم خليل . وجهك يصلح رمزا للموت كعلم القرصان . ولم يرتكب الناس الاخطاء بلا تبصر » (ص ٢٥) . . وبزوجته الحلووة الصغيرة الشهية التي توحى لصابر منذ اللحظة الاولى بذكرات الانطلاق المرید في الاسكندرية ، ترتبط باولى تجاربه في التعرف على الحياة « توقظ مشاعر نائمة وتنبه ذكريات مدفونة في الضباب » (ص ٢٦) . . « السمرة الرافقة النقية ، والعينان اللوزيتان الدعجوان ، وبريقهما المضيء المغم بالنبض والاقحاح » (ص ٢٦) . . ولذلك كله ما تلبث الاحاسيس الكئيبة المفاجئة والمصاحبة للحظة الميلاد ان تتلاشى . . وتلوح بوادر الفة بينه وبين الواقع الجديد . . « وسرعان ما توثقت علاقات خفية بينه وبين الفندق كأنما جاءه على ميعاد » (ص ٢٦) . . بل ان بوادر اللفة ما تلبث ان تستحيل الى تفاؤل . . وشمله شعور تفاؤل عجيب فقال انه على نحو ذلك سيعثر على ابيه . والمؤكد بلا ادنى شك ان هذه الفتاة على استعداد . استعداد لشيء ما . انها تفهم منه موقفا حيايدا في الظاهر ولكنها تخاطب ماضيه واعماقه بالف لسان . ولا شك ان وراء هذه القشرة الناعمة الصامتة اللامالية مدينة مسحورة » (ص ٣٠) . . فقد اعرب الواقع منذ اللحظة الاولى عن حيدته الظاهرية . . ولكنه ما يلبث ان يدرك ان هذه الفتاة التي هزت منه الاعماق ، فريسة لمغالطه رهيبية . . نزلت اعماقه فزعا حينما عرفها « ليعترف بان هذا لم يجر له في بال ، وكم بدا له مزعجا » (ص ٣٣) . . مغالطة الزمن . . فهي زوجة لصاحب الفندق المعجوز الذي جاوز التسعين ، والذي يتمثل لصابر منذ البداية كعلامة للموت ، ويقف الموت في مواجهة الحياة ومن هنا تكتسب علاقة صابر بكريمة ، زوجة خليل ابو النجا ، الفتاة الحلووة المعطاء الكريمة بحق ، ابعادها . اذ تدخل هذه العلاقة ضمن اطار رغبته الملحة في ان يحرر الواقع من صورته المحففة واللامالوفة ، ان يسيطر المعجوز الكئيب المتصدع ، على الفتاة الحلووة المتدفقة بالحياة . وضمن توفقه الى بث شروط الحياة المألوفة داخل طيات هذا الواقع . ومن ثم التحمت الفتاة في عقله منذ تكشفت له ابعاد مأساتها بالاب المفقود « وفي لمحة واحدة تجلت لمخيلته صورة ابيه والوجه الدافئ المغم بالانارة » (ص ٣٣) . وهتف بحرقه حقيقة واسى بعد ان تعرف على ابعاد المأساة . . « ومغالطة الزمن اليست مسلية » (ص ٣٥) . بعد ان اعرب له عم خليل انه من طول ممارسته لهذه السيادة على الحياة قد خرج بان « لا شيء مسل على الاطلاق » (ص ٣٥) . . ويستمر في تعاطفه معها منذ اللحظة الاولى غير مضيق لفرصة واحدة دون ان يعرب فيها عن توفقه لتحريرها من ريقة هذا الواقع المحف .

غير ان هذه العلاقة لا تقدم الا وجهها واحدا مسن وجوه العالم ، الواقع كما هو كائن ، ولذلك كانت مضاجعته الجنسية لكريمة معادلا لالتصاقه الحميم بجسد هذا الواقع . . واذا اضفنا الى هذا دلالات الاسم - كريمة - وصيخته الجدانة المتخمة شيعا ، بعد ان منحته نفسها بسخاء « قلت انك اكثر من كريمة » (ص ٦٢) . . تيقنا ان نجيب لم يقدم من خلال هذه العلاقة سوى وجه واحد من وجوه هذا الواقع . . الواقع كما هو كائن . . لذا كان ضروريا ان ينشئ نجيب علاقة يسفر من خلالها عن وجه الواقع كما يلوح في الحلم ، الواقع كما يجب ان يكون . فكانت الهام ، التي لاحت بجانب دلالات اسمها المرتبط بالحلم « رشيقة نحيلة لفت انتباهه في وجهها تناقض محبوب جمع بين سمرة البشرة وزرقة العينين ، وتكوين الوجه والرأس غاية في الاناقة والابداع » (ص ٣٩) . . والى جانب ذلك فان « العقل ينصح بان يهجر الهام ولكنه لا يستطيع ، هي كآببه فيما تعد به وفي انها حلم عسير التحقيق » (ص ٩١) . . ولذلك فان الاحتفاظ بها يستلزم الاستمرار في اسدال ستار بينها وبين الواقع كما هو كائن فعلا . . يستلزم الكذب عليها « نائي كذبة يكذبها عليها وهو كاره ، رغم انه لم يكذب بعد على المرأة الاخرى » (ص ٧٢) . . وكلما اضطر الى اختلاق كذبة جديدة ، او كلما

الصمت والجائعون

— تنمة المنشور على الصفحة ٢١ —

بأشياء مختلفة تماما .. الراحة والعمل والكرامة ونفض الماضي كله في غمضة عين . ثم الزواج من الرشيفة الحلوة ، التي لاحت في الحلم ابنه لهذا الاب الجهول المعجز السندي وهب غيابه الازمة والضياع واللاحرية .

وبين الحلم والواقع والاب المفقود يعثر نجيب محفوظ اعماق بطله ثم يجمعها في نسيج مأساوي يقدم خلاله رؤيته للقضية واقفنا المصري المعاصر .. الذي يتمزق ابن الانسان تجاهه ، تمزقا يدخل ضمن الاطار العام لتوقه الى العثور على حريته .. ويذكرنا فسي الان نفسه برائعة سارتر (دروب الحرية) فاذا كانت مضاجعة ماتيو لماسة التمزق الضارية التي عاشتها بلاده في (دروب الحرية) قد جاءت ضمن الاطار العام لتوقه الى العثور على حريته .. حريته المفقودة تماما رغم ولوجه كل السبل المفضية اليها .. واذا اسلمنا بالصدق الفني لدى كل من سارتر ونجيب محفوظ ، واخذنا الظروف الموضوعية التي صدر عنها كلا العاملين في الاعتبار (دروب الحرية) و (الطريق) .. فرنسا اعوام الهزيمة ومصر اعوام الصمت .. لامتنا ان نفع بسهولة على المعادل الموضوعي لكافة ما في الطريق من احداث . ولاستطعنا ان نفهم بيسر كل الاحداث التي تبدو للوهلة الاولى مفرقة في البوليسية والتطويل .. ولادركنا بحق الوجه المعجز لهذا العمل الروائي الفذ التركيز والتسري بالدلالات والشديد الالتصاق بالواقع . ولاستطعنا ان نفع على الدلالات الفنية لفشل البحث عن طريق الاعلان واخفاق البحث عن طريق التليفون .. ولا جدوى الاستدلال على الاب المفقود عند مشايخ الحارات او في السجون .. وغير ذلك من الطرق التي تنكبها صابر في سبيل البحث عن ابيه المفقود .. بل لادركنا ايضا حقيقة (الطريق) المفضي الى هذا الجهول المعجز .

وبين دوامات البحث عن هذا الجهول المعجز . تمزق صابر .. اذ كان يواجه في آن واحد ، محاولات التزييف العديدة لوجه هذا الواقع ، وتهديد النفود المشوكة على النفاذ ، ودوي الصمت السندي يحاصر كل شيء ، والوجه اللامع للحياة .. اما الزاد الذي كسان يستعين به على الحياة طوال هذا الوقت ، فقد كان يتناوله بما في ذلك الخبور من « بقالة الحرية » .. وكان الواقع يضعه مباشرة امام حلول ثلاثة عليه ان يختار واحدا منها .. « ارجع الى الاسكندرية واعمل قوادا لامدائك . اقتل واغمم كريمة ومالها . استخرج الرحيمي من الظلمات وتزوج الهام » (ص ٩١) .. فلماذا اختار الحل الثاني دون بقية الحلول ؟ الحل الاول يبدو مستحيلا .. اما الحل الثالث فانه بحاجة الى بعض النقاش . فمن البداية اكدت كل الشواهد ان الرحيمي موجود .. تأكيد أمه القاطع بوجوده وهي على فراش الموت .. خليل ابو النجا الذي عاش زمنا طويلا يضيق عينيه حينما يسأل عنه ويقول « غير مستبعد انني سمعت عنه » (ص ٣٠) .. ومقابل هذا يؤكد احسان الطنطاوي « انا رجل عشت في مختلف الاوساط بالقاهرة زهاء ثلاثين عاما ولم اسمع عنه » (ص ٥٢) .. ويتمم بدهول حينما يرى صورته (يا له من شخصية) (ص ٥٢) .. ويعلن عنه فيأتي كثيرون كل يدعى انه هو « اتصل به سيد سيد الرحيمي الحلاق ببولاقي ، وكان مدرس لغة عربية ، وثالث سائق ترام ، وقابلهم واحدا فواحدا ، كما قابل الدكتور من قبل ولكن لم يكن لاحد منهم علاقة بمن يبحث عنه . اين من يبحث عنه اذن ؟ ولم لم يتصل به كما فعل الآخرون ؟ » (ص ٤٦) .. ولاحت محاولات عديدة لتزييف هذا الاب المفقود ، بله التشكيك فسي وجوده نفسه عبر السبل المختلفة التي تنكبها صابر من اجل الوصول اليه . ولنتعمق هذه الوسائل التي مارس صابر من خلالها بحثه عن

ابيه ، او بمعنى اكثر وضوحا (الطرق) المختلفة التي سلكها في سبيل الوصول اليه ، لنرى لم لم توصله هذه الدروب الى الاب المفقود ؟ .

في البداية برقت السخرية عبر كلمات مشايخ الحارات وهسو يسألهم عنه ، وكانهم يتسمون اسي لسذاجته . وفي سجلات السجن او المحرك لم يجد اسمه ، وادعى كثيرون عبر اسلاك التليفون انهم هو ، ولكن المواجهة الحقيقية كانت تفضح محاولاتهم التزييفية له . ثم اتصل به رجل مجهول ساخر وهو اهم من اتصلوا به وبالتالي فان تفسير هذا الاتصال ، وهذه الشخصية سوف يلقي دقات ضوء شديدة على حقيقة سيد سيد الرحيمي من جهة . وعلى عقم الدروب التي يسلكها صابر للوصول اليه من جهة اخرى . والتفسير الساذج الذي قدمه عبسد الرحمن فهمي (١١) .. لهذه الشخصية بعيدا عن حقيقتها لدرجة كبيرة ، اذ صورته عبد الرحمن فهمي بسذاجة ، او بدون فهم لا ادري ، احد معارف امه الذين يتشفون فيه ، بينما التعمق البسيط لاحداث الرواية يؤكد ان نجيب قد قطع كل الصلات بين صابر وماضيه تماما . كما ان طبيعة الحوار الذي دار بينهما - صابر والرجل المجهول - لا يشي بذلك . فقد اكد ذلك الحوار حقيقتين .. اولهما ان صابر لا يعرف بالضبط وبصورة محددة ماذا يريد من ابيه المفقود . وثانيتهما ان سيد سيد الرحيمي الحقيقي موجود بصورة قطعية ، وانه في مكان لا يمكن الاستدلال عليه بسؤال المارة . كما ان الاستدلال عليه عن طريق الاعلان في الصحف وسيلة جد عقيمة وجد ساذجة .. تماما كان تعلق في احد الصحف بان .. الحرية والكرامة والسلام مفقودة ، من يعثر عليها او يعرف مكانها ، يتصل بصابر سيد الرحيمي بفندق القاهرة .. ولذلك يصرخ فيه هذا الرجل المجهول بعد ان اكد له فشل طريقة الاستدلال عليه بسؤال المارة « حقيقة انك حمار » (ص ٥٩) .. تصفحه الكلمات بعد ان « حرق ساعات النهار في البحث والسؤال مندفعها باصرار محموم » ف « يرد الى نقطة البدء ودون بادرة أمل » (ص ٥٩) .. ان هذا الشخص المجهول في رأيي اما انه سيد سيد الرحيمي الحقيقي والذي لا يهب نفسه بسهولة قد رثي لحال باحث عنه فاتصل به ليقول ليس هذا هو الطريق .. او انه - وهذا هو الأرجح - واحد من الذين يعرفون الطريق الحقيقي الى سيد سيد الرحيمي . ويعرفون في الان نفسه عقم الدروب التي يجوسها صابر ، ومن ثم يتصل به ليقول هو الآخر .. ليس هذا هو الطريق .. وبهذا فان نجيب محفوظ يؤكد عبر وسائل البحث تلك حقيقتين ، احدهما ان هناك محاولات عديدة لتزييف الوجه الحقيقي لسيد سيد الرحيمي .. والاخرى ان هذا ليس الطريق اليه .. ويكفي فقط ان يقول نجيب هنا ليس هذا هو الطريق .. فهذه المقولة في حد ذاتها ، والتي سبق ان تردت في جنبات (اللص والكلاب) مقولة تقديمية في هذه الظروف .. وتحضرنني بهذه المناسبة الكلمات المضيئة التي قالها بيير كوري ردا على سؤال احد مساعديه ..

— علينا ان تكف عن هذه التجارب ، لقد اجرينا مائة تجربة لم توصلنا الى اي شيء .. فما جدوى كل هذا ؟! واجاب بيير كوري العظيم .

— يكفي اننا عرفنا ان ثمة طريقة ، لا توصلنا الى ما نريد . ذلك لان معرفة الطريق الخاطيء هي اولى الخطوات في سبيل الطريق الصحيح .. هذا وقد اشار نجيب في هذه الرواية ، وفي (اللص والكلاب) ايضا الى بعض معالم الطريق الصحيح . عبر بعض الاشارات اليعائنية السريعة « السبل مسدودة لحد الاختناق » و« العمل ! هو الذي يحل مشكلتنا » (ص ١٢٢) .. كما اكد في نهاية الرواية ان سيد سيد الرحيمي موجود فعلا .. وان مأساة صابر الدامية لم تذهب هباء .. وان كان يومئذ الى ان العثور عليه لن يتم عن طريق المواجهة المباشرة بل عن طريق البرهان (١٢) المؤكد لوجوده في بقاع اخرى من العالم .. يمارس الحب ويرتع بحرية شديدة عبر البلاد الاخرى ، فني

(١١) في مجالته الاذاعية للرواية بالجامعة القاهرة .

(١٢) كان باسم الرجل الوحيد الذي تعرف بحق على سيد سيد

الرحيمي .. على برهان .. لاحظ دلالة الاسم هنا .

يملك الملايين من « الجنيهاً التي اقتناها من تجارة المشروبات الروحية » (ص ١٨٠) التي تحرر العقل من كل قيود الواقع فيمنح نفسه بحرية . . ويدمر قضبان الصمت . . ولكن توضيح ابعاد شخصيته بهذه الطريقة . . تدفع صابر الى اولى درجات الطريق اذ يهتف « وبسبب هذه المعرفة الطائرة اصبح الرجل اعز مثالا من الاول » (ص ١٨١) . . ذلك لان المعلومات التي وصلته عنه اكدت وجوده واكدت في الان نفسه صعوبة العثور عليه . . وتترك الرواية صابر وهو يهز منكبيه استهانة بيقين المحامي ، وبالحكم بالاعدام وبكل شيء . . قائلا « فليكن ما يكون » (ص ١٨٥) . . تماما كاستسلام سعيد مهران لخصاص الطلاب « بلا مبالاة » . . وكان هذه اللامبالاة ، هي صرخة الاحتجاج الوحيدة التي يسمع بها الواقع المجمل بالصمت واللامرية .

بذلك نكون قد قدمنا الهيكل العظمي لخريطة العلاقات الانسانية داخل الرواية ، وحتى تستطيع كافة هذه العلاقات ان تكتسب وجهها الحقيقي نلزمنا دراسة تفصيلية لاغلب الشخصيات الرئيسية في هذه الرواية ، حتى تظهر اعماق كل شخصية واضحة وناضجة بما تحتويه من معان ودلالات . وحتى تكتسب خريطة العلاقات الانسانية في الرماية بعد ذلك كافة ابعادها الرمزية . . ولنبدأ الان في التعرف على كسبل شخصية على حدة . .

(٣) بسيمية عمران . . يا بلدي الحبيب

رغم ان الاشارات التي تناولت هذه الشخصية قليلة للغاية ، الا انها كانت كافية لان تؤكد اهميتها من جهة ورمزيتها من جهة اخرى ، خاصة وانها كانت ام بطل الرواية ، او بمعنى اكثر مباشرة الجذور التي ارتوى منها حتى يناهة شبابه . . كما انها كانت العارفة الوحيدة طوال ثلاثين عاما بحقيقة ذلك الاب المفقود المعجز ، السيطرة في الان نفسه على وجه الواقع الذي عاشت فيه اذ كانت اعنى نساء الليل في الاسكندرية قاطبة ، الحاذبة الرؤوم على وليدها الدليل الوحيد ، والتسي مارست شتى صنوف السيادة والسيطرة . . غير ان نجيب لم يشر الى هذا الجانب العريض من حياتها الا باشارات خفيفة للغاية ، ولم يحاول ان

يقدم لنا دلائل هذا العز وهذه السيادة . . . ذلك لانها تلاشيا فسي الفترة الاخيرة ، ومن ثم عمق تلاشيها من مناسوية الوضع الراهن المنزل ، وبدأت الرواية في اللحظة التي ماتت فيها هذه الام تماما ، ولاحت فسي كفنها على اغتصاب المقبرة كالخيال « شد ما هزلت يا امه ، وتوارت عن نظريه تماما فلم يعد يرى الا ظلمة ، وسطعته رائحة تراب » (ص ٥) . . واقرن الظلام بغيابها ، واقرنت به الذكرى ، « كانت رحمها الله تحب الرفاهية فأعدتها للدارين ، ولكن لم يبق لها الا المقبرة » (ص ٦) . . ولاحت له صورتها بالامس بعد ان انهكها الاسى « وسارت في خطوات متخالفة متخالفة من الاعياء والضعف ، وقد وهنت وهزلت وكبرت ثلاثين عاما فوق عمرها الحقيقي الذي لم يجاوز الخمسين ، هكذا تبدت بسيمة عمران في اخر صورة لها » (ص ٧) . . وهي نفسها تصرخ مرهصة بنهايتها « امك انتهت يا صابر » . . بزحف التلاشي فوق سيقان الحياة . والسبب في ذلك يصرخ صابر « لعنة الله على المرض » (ص ٧) على انتفاء الاتساق والقوة والحيوية من جسم الواقع ، ولكن امه توقفه على السبب الحقيقي الذي استل مياه الحياة من الوجه المتورد « ليس المرض ولكنه السجن ، والمرض جاء من السجن ، امك لم تخلق لذلك ، وقالوا الكبد والصفط والقلب ، الله يمرض عيشتهم ، ترى الا يمكن ان ارجع الى ما كنت » (ص ٨) . . وهي السى جانب معرفتها بالداء مليئة بالحكمة « صابر . . تجنب الغضب . . انه الغضب ادخلني السجن » (ص ٩) . . وهو ايضا الذي ادخل ابنها . وثاقسة بنفسها رغم ولوغها حتى الاذنين في دوامات العار . رغم حياة العهر الدامية التي عاشتها في صبر ودأب ومقدرة . . على فراش الموت تنفت الدخان في غضب وتصرخ « امك اشرف من امهاتهم ، اني اعني ما اقول، الا يعلمون انه لولا امهاتهم لبارت تجارتي » (ص ٩) . . وعن الواقع الخارجي تعرف فكرة حقيقية وعميقة ، مكتنز بالانانية والتفسيخ الفضياع . . ومن هذا لفت حول ابنها الاسيجة . حمته من تفسخ هذا الواقع وتهرؤه . لكن الان . . وقد استل الوهن من اليد الحانية قوتها ، وزحف اليأس على اشلاء الارادة الصارمة « انا انتهيت . . بسيمية ايام زمان لن تعود ، ولا سبيل الى العمل من جديد ، لا الصحة تسمح بذلك ولا البوليس » (ص ١٠) . . واصبحت هذه حالة تلك التي « كانت تدخن النارجيلة وتحكم الرجال ، وعندما تجلس لمناقشته تجلس كملكسة » (ص ٦٠) . . وتزعزت لأول مرة في حياة صابر ثقته في امه . وادركت الام نفسها ان لحظة فقدانها لصحتها ومالها وسيادتها وحريرتها عانقت في الان نفسه لحظة فقدان الابن « انت لا تفهم شيئا ولك الحق ، الواقع ان الحكومة صادرتك ساعة صادرت أموالي ، لم يعد لي الحق فسي امتلاكك انت ايضا ، ادركت ذلك يوم صدور الحكم » (ص ١١) . . ومن هول هذا الواقع الرابع عناق لحظة الوعي الضارية بتدفق طوفانات الحب في القلب الذابل صرخت بالحقيقة الدامية التي حبستها بين الضلوع ثلاثين عاما . . حقيقة الاب المفقود . . « لا تحاسبني واستند للبحث عنه » (ص ١١) عن الاب الذي يعوض وجوده القيم المفقودة والتي فقدت بسببها الام ابنها ، الابن الذي دافعت عنه حتى الاستماتة، أفنت الحياة كلها من اجله ، تقذف به في لحظة يأس وامل الى دروب الواقع . . تحكي القصة ثم تؤكد انه سيهيء لابن القيم التي لم تتمكن من توفيرها له « كنت غنية حقا ولكني لم اهيء لك كرامة ولا عملا ولا سلاما » (ص ١٧) . . ولكنه . . الاب المفقود « ستجد في كتفه الاحترام والكرامة » (ص ١٤) . . تقول كل هذا ثم تموت . . ويموت معها الماضي كله ، وتترك الابن فوق دروب البحث بلا زاد . . واذا اضفنا الى كل الدلالات التي تبرق عبر حديثنا عنها والتي تشي برمزياتها ، ان مصر عند نجيب محفوظ دائما ما تتجسد في صورة المومس ، حميدة في (زقاق المدق) ونور في (اللص والكلاب) . . استنطقنا ان نعثر على بعض وجوهها الرمزية ، وان كان ليس من الضروري ان تعني مصر بطريقة حرفية ، ولكن دلالات كونها مومسا ، ودلالات المومس الثرية في ادب نجيب محفوظ ، تضيف الى ملامحها الشخصية ابعادا خصبة اخرى ، وهذا هو ما اردنا ان نركز عليه . . .

صدر حديثا :

أعياد

مجموعة قصص

بقلم

عبد الله نيازى

دار الاداب

٢٥٠ ق. ل

ثم لنهاتها .. اذا اضفنا كل هذه الاشياء الى ارتباط الاب بهذه الفترة، لاح لنا المعادل الواقعي لشخصية هذا الاب بطريقة جد واضحة .. وبدا هذا الاب الجوهل المعجوز المفقود تجسيدا لكل القيم المفقودة في واقع صابر .. واول هذه القيم .. هي الحرية .. الكرامة والسلام.

(٥) الشحاذ .. ومعادلات المطلق

ثمة معادلات اخرى للقيم الى جانب سيد سيد الرحيمي في الرواية ... اولها الشحاذ ، الذي يرى الصديق الاستاذ توفيق حنا انه بمثابة توفيق نجيب محفوظ على هذه الرواية ، وذلك لتكرار هذا النموذج بالحاح في كافة رواياته .. في الرحلة الاخيرة فقط نرصده في (اللص والكلاب) في صورة الشيخ علي الجندي وفي (السمان والخريف) في شخصيتي سمير عبد الباقي والشيخ السلهوبي .. وهو هنا ليس مفرقا في الصوفية فحسب بل هو مفرق في اليأس والتخدي معا ومن ثم يتمثل شحاذا ... يطلب الصدقة من بطل روايتنا الذي « لم نشده الى الدين علاقة تذكر ، ولا شهد النبي دانيال ممارسة عادة دينية واحدة فهو يعيش في عصر ما قبل الدين » (ص ٧) .. ولكنه لا يستدعي منه سوى الكراهية .. ذلك لانه كان يلوح في كثير من الحالات مرادفا للضمير في أعماقه ومن ثم كان يمارس عليه ، وبطريقة غير مباشرة ، كأغلب القيم الميتافيزيقية المعاصرة ، سلطات لا محدودة .. ولذلك يهتف حينما يفاجأ بمنظره المرعب (ص ١١١) وهو في عز الازمة « اي انسان يعطف على هذا الشحاذ » (ص ١١١) .. غير ان الشحاذ، وبعد ان يتفقد الموقف بصورة مرعبة، يهتف وسط الظلام « ربنا ينور بصيرتك . دعوة مستجابة باذن الله من سائل مسكين » (ص ١٦٣) .. ثم يظهر في النهاية ان هذه الدعوة هي التي ايقظت المخبرين النائمين ليتنبهوا الى النهاية المحتومة .

وهناك الى جانب هذا العارف بالله سيدي الشيخ زندي المتربع في حجرة تحنانية تعيش في مفبب متصل، والذي تشتم عبر مندبل صابر ثم اطلق حدسياته بوجود من يبحث عنه عبر عبارات مفرقة في الالفاظ (ص ٢١) واللاجدوى .. ثم فارئ القيب بالسدر بالاحمر المدعو بالشيخة زهرة والذي « لما بلغ مسكنه وجده مفلقا مختوما بالشمع الاحمر ، وقيل له ان البوليس قبض عليه بنهمة الدجل . وتسائل صابر، متى كان الدجل تهمة ؟ » (ص ٩٢) .. كل هذه الشخصيات تجسد شتى ابعاد المطلق .. وتؤكد في الان نفسه لا جدوى الارتكان الى الحلول التي يقدمها ، وان كانت شخصية الشحاذ اكثرها وضوحا قد جسدت الى جانب ذلك القوى الضميرية ، ومن ثم كانت تشي بدييات الكثير من الاحداث وتعقد بخواتيمها .. نجمله بصرخ « اللعنة .. متسى يخرس الشحاذ البشع » (ص ١٢٩) .



الشخصيات الثلاث السابقة تقدم السى جانب المعادلات التي اوضحناها دلالات قيمية بالدرجة الاولى ، فان جسدت بسيمية الماضي ، فان سيد سيد الرحيمي يعد بالمستقبل ، بينما يشي الشحاذ بكثير من ابعاد الحاضر .. وكلها دلالات قيمية بالدرجة الاولى ، اما الشخصيات الاربعة الباقية فانها تمثل دلالات واقعية بالدرجة الاولى ايضا ومن ثم فانها الشخصيات الاكثر فاعلية والاشد اهمية في هذه الرواية . اما بقية الشخصيات الاخرى فانها تمثل الاطار العام الذي تتحرك في نطاقه هذه الشخصيات الاساسية ، ومن ثم لم يظهر طوال الرواية اي خريطة للعلاقات بين هذه الشخصيات القيمة الثلاث وبعضها ، بينما تراجمت خريطة العلاقات متشابكة بين الشخصيات التي تمثل العلاقات الواقعية وتقدم تلخيصا روائيا لشمى ما في الواقع من تيارات .. ولتحاول التعرف على هذه الشخصيات في اطار خريطة العلاقات الدائرة فيما بينها ، وفي الاطار العام الذي تحركت خلاله .. اطار القيم .. ولنبدأ بصاحب الفندق .

من البداية لاح مفرقا في الالفاظ ومرتبنا بالقيم ، بالدرجة التي يصبح القول معها بأنه مجرد أب مفقود ، درب من السداجة المفرطة . ولذلك فاننا سنحاول ان نستكنه بعض ابعاد شخصيته .. نقول بسيمية عمران « كنت امرأة له منذ ثلاثين عاما ثم لم اعد ادري شيئا » (ص ١٢) .. ونقول عنه ايضا « انه سيد ووجه بكل معنى الكلمة ، لا حد لثروته ولا لنفوذه ، لم يكن في ذلك الوقت الا طالبا بالجامعة ومع ذلك كانت الدنيا تهتز لدى محضره » (ص ١٢) .. سيحرك من ذل الحاجة الى اي مخلوق بما سيهيه لك من عمل غير البلطجة والجريمة فتظفر اخر الامر بالسلام » (ص ١٤) .. « اؤكد لك ان المال ليس الا حسنة من حسناته » (ص ١٤) .. يسأل صابر عنه خليل ابو النجنا فيقول « غير مستبعد انني سمعت عنه » (ص ٣٠) ويقول احسان الطنطاوي المشقول الرأس بالحسابات لا القيم « انا رجل عشت في مختلف الاوساط في القاهرة زهاء ثلاثين عاما ولم اسمع عنه » (ص ٥٢) .. وفي الحلم راه صابر « نظر صوبه في رهبة حقيقية اذ وجده اضخم وافخم من اي خيال » (ص ٦٧) ويقول عنه علي برهان .. الصحفي المخضرم الذي عاش تسمين عاما « كان وما زال مليونيرا ، لا عمل له الا الحب ، وكلما وقع في مأزق هاجر من مدينة الى مدينة ، مواصلا ممارسته لهوايته » (ص ١٧٨) كما انه « يذكر انه تلقى رسائل منه من جميع القارات (ص ١٧٩) .. فما هي دلالة كل هذا ؟

علينا ان نرتب ما لدينا من معلومات عنه ونموضعها في اطارها الاجتماعي حتى نخرج بصورة واضحة له . فقد كان زوجا لسيمية عمران الرمز منذ ثلاثين عاما .. وكان وقتها طالبا بالجامعة تهتز الدنيا لدى محضره .. فاذا اخذنا في الاعتبار ان الرواية كتبت في بدايات ستينات هذا القرن ما بين ١٩٦٢ ، ١٩٦٤ .. كانت الفترة التي كان فيها سيد سيد الرحيمي طالبا في الجامعة وزوجا لسيمية واقعة بين ١٩٢٠ ، ١٩٢٤ ، وهذه الفترة على وجه التحديد مسن اكثر الفترات اكتظاظا بمعارك شعبنا من اجل الديموقراطية . اذ تناهت على وجهه الواقع المصري في تلك الفترة حكومات العهد السياسي ، ابتداء من حكومة اليد الحديدية برئاسة محمد محمود ، حتى حكومة توفيق نسيم والقوادين ، مرورا بحكومة اسماعيل صدقي الاوتوقراطية وحكومة عبد الفتاح يحيى العميلة .. وصادرت الحكومات الاربع دستور ١٩٢٣ ، وجاءت حكومة صدقي ببديل اخر مزيف هو دستور ١٩٢٠ .. وبصفة عامة اتسمت هذه الفترة بالمصادرة المستمرة لحرية الجماهير الشعبية على وجه التحديد . ومن ثم اندفع طلبة الجامعة ، طليعة البرجوازية الصغيرة التي ظلت حليفا مستمرا للجماهير الشعبية في ثوراتها المستمرة من اجل الحرية منذ بداية الثورة القومية حتى اليوم ، يقودون الحركة ، ويحملون لواء الكفاح في تلك الفترة .. لذلك فان ربط سيد سيد الرحيمي بطلبة الجامعة في هذه المرحلة من تاريخنا الكفاحي من اجل الديموقراطية ، له دلالاته الثرية ، خاصة وقد قيل ان الدنيا كانت تهتز لمحضره آنذاك ، فعلا كانت تهتز الدنيا لاضرابات طلبة الجامعة وحركاتهم العصيانية في تلك الفترة . يؤكد هذه الدلالات ارتباط الاب بهذا الشعار الثلاثي .. الحرية والكرامة والسلام .. والذي يقابل اسم الاب الثلاثي الذي ركن الكاتب على ثلاثيته .. مقابل تركيزه على ثلاثية شعاره . واذا اضفنا الى كل هذا الدلالات التي تشي بها ابوة وخاصة في العقلية المصرية المرتبطة بهذه الفكرة الى درجة كبيرة ، وطوفانات الوعي بحقيقة الواقع والتي كانت تنوش اطراف وعي صابر متمثلة في الصمت الكئيب الذي يسبح كل شيء والظلام الذي يلف كافة الاشياء « ورأى الظلمة مرة اخرى ، سواء فتح عينيه استظلاما او اغمضهما شيئا وارياحا » (ص ٦٢) .. « واحيانا يخيل اليه ان الصمت يخنق العالم » (ص ٧٠) .. وتوق صابر الدائم الى التعرف على جنوده ، والتي انطلقت اشباعا لهذا التوق كل الفلسفات الباحثة عن اصل الوجود الراقبة في تقديم تفسير مفتح لبدايات الحياة الانسانية ومن

بحق .. يتلقى قصة ابنيه المطالب بالبحث عنه بنفس شجاعة ابن جيلنا الباحث عن جذوره التائق الى التعرف على اصوله . « المتطلع بمعجزة الى الحرية والكرامة والسلام » (ص ١٨) .. ومن البداية تنوش فكرة مداعبة الواقع خياله ، خاصة بعد ان نزع جذوره تماما من ارض الماضي وجاء الى القاهرة ، فيعرب لكريمة منذ اللحظة الاولى عن اعجابها بها .. غير ان هذا الواقع الجديد ما يلبث ان يسفر رويدا رويدا عن وجهه الكئيب .. وتتساقط بشائر التفاؤل ... تتداني علامات التجهيم .. « المؤسف انني ظننت ان الذين يعرفونه في القاهرة لا حصر لهم ، ولكني لم اجد حتى الان احدا يعرفه » (ص ٤٠) .. وذهبت كسل محاولات البحث هباء « وكل ساعة تمر تقربه من النهاية المخيفة . وماذا بعد الانتظار والجري وراء المجهول في الظلام » (ص ٦٠) .. فهو لكل ابناء جيلنا مطالب بأن يهب حياته المعنى رغم ضالة ما لديه مسن امكانيات توشك على النفاد .. ممزق بين كريمة والهم « ولكن ما قيمة اي شيء قبل العثور على الاب » (ص ٦٠) .. ولذلك فانه ما يلبث فور حضور كريمة اليه ان « ضمها اليه بقوة تعادل الصبر المذب الطويل » (ص ٦١) .. والتحم بها تماما فرأى « الظلمة مرة اخرى سواء فتح عينيه استطلاعاً ام اغمضهما شبعاً وارتياحاً » (ص ٦٢) .. ويقطع نفسي كريمة الحازم لاي صلة بينها وبين ذكريات الانفوشي ، خيوط التفاؤل « ولكنك خيبت ظني ، طالما قلت لنفسي اذا كانت هي فتاة الاسكندرية فقد يعني هذا انني ساوفق في البحث » (ص ٦٣) .. فلاح الاب متخلياً عنه في الحلم ممزقا لكل الصلات التي تربط بينهما « وهو يكره الاحلام لانها ترجعهم الى فترة ماضية من حياته الح فيها عليه الصرع حتى كاد ان يهلكه » (ص ٧٠) مع كل ما للصرع وكراهية الاحلام من دلالات هنا .. وتتتابع احداث الواقع بصورة تدعو صابر الى التخلص مسن وجهه للاعداد فيستमित في البحث مناشدا الاب بالعودة « انه هو المحتاج الى الغائب وليس العكس . وانه لا يحتاج اليه حبا في الحرية والكرامة والسلام فحسب وانما خوفا من التردى في الجريمة » (ص ٨٦) .. وزحف اليأس والفنور .. « ولم تعد ابناء التليفون تهز أعماقه ، ولكن آه لـو يخلف ظنه وبجيشه بالمعجزة في هذه اللحظة مسن اليأس والعذاب » (ص ٩٦) .. وينتردى في الجريمة .. ويواجه عقبا مباشرة الوجهه السافر للشحاذ .. « رآه لأول مرة بوضوح على ضوء مصباح . وشد ما اثار اسمئزاه لحد الفتيان . وجه نحيل ضائع المعالم في لحية متلبدة بالقذارة ، وعظام بارزة ووجنتان غائرتان وانف مجدوع . ورأس مغطى بطاقيه سوداء يحجب مقدمها حاجبيه . تدمع تحتها عينان دمويتان مشدودتان الى اسفل » (ص ١١١) .. كل هذا في مقابل جمال صورة وجه صابر الاخاذ .. وفي نفس اللحظة يلوح له الماضي مسؤولاً عن كل شيء بعد اليقظة الراجعة على وجه الشحاذ « وأمك هي القاتل الحقيقي » لهم خليل ابو النجاء » (ص ١١٦) .

ورغم كل هذا فان ارتكابه للجريمة لا يلتصق بقشرة وعيه كثيرا ، لانه جاء ضمن اطار البحث عن الاب الذي يحتل المكان المحوري من كل تفكيره .. لذلك كان يشعر في لحظات كثيرة بهذا الاحساس « ودهمته الحقيقة الغريبة - وكأنها تدهمه لأول مرة - وهي انه ازهق روحا » (ص ١٦١) .. وهتك الشك الجزء الباقي من عقله ، وهتك في الوقت نفسه حياته وحياة كريمة .. ولم يعد امامه في اللحظات الاخيرة سوى الاحتجاج الصامت الذي اطلقه من خلال استسلامه بلا مبالاة للمصير الرابع المحتوم .. ذلك لان « امه انشأته على مستوى رفيع من الجاه فلم يكن بد من ان يعثر على الاب الوجيه المزعوم او يرتكب اشنع الجرائم وهي القتل » (ص ١٦٩) .. وجاءت تحليلات الصحافة للمأساة شاهداً آخر على مأساوية الواقع ككل .. حيث لا يبقى من مأساة كهذه سوى وجهها الطريف .. « وقال استاذ علم النفس ان صابر مصاب بمفردة حب الام ، وانه يمكن تفسير اندفاعه الاجرامي بامر من مهمين . فهو اولاً وجد في كريمة بديلاً عن امه فاجبها . وان لاشعوره اصر على الانتقام لانه قتل صاحب الفندق كرمز للسلطة وطمع في مصادرة امواله كما صادرت الحكومة اموال امه » (ص ١٧٠) وبات واضحا المصير الذي

يبدو هذا الرجل المعجوز رغم نانوية الاحداث التي شارك فيها مسيطراً على كل احداث الرواية .. مالنا لمقدرات شخصها .. فهو صاحب (فندق القاهرة) التلخيص الروائي للواقع الكائن فعلا والذي يعيش فيه كل من صابر وكريمة ... وهو في الان نفسه رمز لسيطرة القوى الرجعية والمتخلفة على وجه هذا الواقع « انت سر من الاسرار يا عم خليل . ووجهك يصلح رمزا للموت كعلم القرصان » (ص ٢٥) .. ولذلك فانه يستوي لدى صابر ان يجيء ابوه او ان يذهب ذلك الوجه الرجعي المسيطر على الحياة .. لان دلالة الحداث واحدة « يستوي لدي ان يجيء ابي او ان نذهب انت » (ص ٨٥) .. خاصة وانه « اما انت يا عم خليل فلن تتغير نفيرا يذكر بعد الموت » (ص ٨٥) .. فهو ميت فعلا بشكل او باخر ، وسيطرته على وجه الواقع تعني سيطرة الموت على الحياة ، ومن ثم يستوي ان يذهب الموت لترك للحياة فرصة الانطلاق ، او ان تجيء الحرية الحقيقية لتهبها هذه الفرصة . خاصة وان هذا الموت المسيطر « بيده المعروفة المرعشة والكوثية السوداء التي اخفت عنقه النحيل » يمارس كل غرائزه على حساب الحياة .. « خير ما تفعل يا عم خليل هو ان تموت . انا اعرف عنك اكثر مما تتصور . انت لا تنام الا بالنوم وبعد ان تدلك كريمة طويلا . وسعادتك تمارسها في الحنان العقيم ، ولذلك الوهمية عندما تجردها من ثيابها فتذهب امامك وتجيء ثم تحبها براحتك » (ص ٨٥) .. وكذا يمارس للسيطرة يلهب الباقين بسوط الحاجة « غريزة النفود هي الغريزة الوحيدة التي حافظت على قوتها عند الرجل » (ص ٧٨) .. ويكبلهم بالقيم الجوفاء « لسم يكتب كل شيء باسمي الاب بعد ان اخذ علي عهدا بالوفاء ، قال لي انت يدي وعيني وابنتي وزوجتي ، لا تنفص على صفوة الايام الباقية » (ص ٩٧) .. بكل شيء دعم سيطرته .. ومن ثم يلوح هو العقبة الاساسية والوحيدة بين صابر وكريمة .. وبينه والرحيمي .. وبينه والحرية والكرامة والسلام ... ولذلك يجيء اغتياله في النهاية ضمن رغبة صابر المشوق الى اغتيال كافة الشروط الانسانية من وجه الحياة . خاصة وان هذا المعجوز الكئيب غير القادر على خدمة نفسه في هذا الواقع مسيطر على كل ما فيه ومسخر كل افراده لتلبية مطالبه واشباع غرائزه ، مكتفيا بمراقبة ساحة الفندق التي تلوح بكل ما يدور فيها من مناقشات تلخيصا روائيا للواقع ككل .

(٧) صابر .. ابن جيلنا

صابر هو الشخصية الرئيسية التي يريد نجيب محفوظ ان يقدمها لنا في هذه الرواية .. والتي تجيء كافة الشخصيات الاخرى معمقة لايعادها وموضحة للمامحها ، فلا تعدو كونها شعيرات دموية تصب في شريان الرواية الرئيسي .. صابر .. وصابر شاب في الثلاثين مسن عمره ، ومن ثم فهو ابن لجيلنا بحق ... يجسد كل عذابات هذا الجيل، وكل جوعه الى الحرية .. يجسد بحثه الدائم عن جذوره ، وعن قيم جديدة يؤمن بها وتوفر له كل ما يفتقده في واقعه من حرية وكرامة وسلام .. يجسد صراع هذا الجيل ضد جدران الصمت وقضبان السجن المركبة داخل كل منا .. يجسد حالة الرعب الدائمة التي يعيشها ، وحالة التمزق الدائمة التي نفتت كيانه ، التمزق بين قيود الواقع كما هو كائن ، وبين صورته المستقبلية التي تلوح صارخة بالالوان مشرقة بالبهجة .

وكل ابناء جيلنا فهو مثقل ضميريا بتركه العفونة التي خلفها الماضي .. بما فيه الملوذ بالعادة والجريمة .. والذي يرادف التكوين الحضاري لابناء جيلنا الذين دعوا مع بدايات اطلالهم على الحياة كافة المآسي الدائمة التي لطخت بالعار ضمير هذا القرن .. ثم عاشوا واقعا اكثر مأساوية من ذلك الذي دمرت الحرب انسانه .. ومن ثم فان هذا الماضي يدخل ضمن تكوينه الحضاري ، ملوحا له في كسل لحظة .. « آه . تحريات . النبي دنيا . الكناد الليلي . بسيمة عمران . سوف تطارده الشبهات بالوراثة » (ص ١٣٤) .. ورغم كل هذا فهو صابر

ينتظر اي محاولة فردية للبحث عن القيم المفقودة .. في واقع فاقسد لاغلب شروطه الانسانية ... وان اضاف صابر الى المحاولة التي قام بها سعيد مهرا من قبله في تحرير وجه الواقع ، ابعادا فلسفية كثيرة، اثرت المحاولة بالدلالات ، وكشفت النقب عن وجه الواقع الحقيقي .

(٨) جريمة .. شبق الواقع

تعمق جريمة مأساة صابر وتثريها بالابعاد التي توضح الاسباب الراسمة للآزمة .. اذ تصب ازمته في الشريان الاورطي لمأساة صابر النائق الى ابيه المفقود .. وتلتحم بها تماما ، فيصبح همه الجديد بعد المضاجعة ان يبقى جوارها لاطول مدة ممكنة (ص٦٣) .. كما انها تلوح من البداية مرتبطة بذكريات الماضي ، ومشكلة واحدا من الابعاد المأساوية للواقع خلال تبديها داخل مفالطته الضارية زوجة لعم خليل .. « وهي تآبى ان تعترف بانها فتاة عطفة القرشي ، لماذا تخفين الاسرار ؟ لانك العذاب والشيطنة . وقد التحمت في خياله بهدير البحر ورائحة الماء المالح واليود وحنين الوطن ومغامرات الليالي المغممة بالشهوات ، والمعارك البهيمية . وهي مثله تغلي في شرايينها دواعي الفطرة والغريزة وانعمي والفتحة ، لا كالهام نسمة تستقر في ذروة لا يرقى اليها احد » (٨٧) .. « اما جريمة فامتداد حي لامه فيما تهبه من متعة وجريمة » (ص٩١) .. و « الايام تمر والنقود تنافس وحكاية الاب امست اسطورة سخيفة لا يركن اليها بحال ولا غنى له عن هذه المرأة فهي حياته والامل الباقي له في الحياة » (ص٩٥) .. يتوحد مصيرها بمصيره « حياتنا واحدة فاذا قضى عليك قضى علي ، ولا حيلة لنا في البحث عن طريق للخلاص من الالم والجنون » (ص١٠٠) .. « وماذا يعني الرحيمي له بعد ما كان ؟ .. الامل الوحيد الباقي هو : جريمة » (ص١١٢) .. جريمة باختصار « ربيبة بلطجية ، جارية سوقية ، زوجة رجل فان ، مديرة جريمة رهيبية ، خالقة لذات جنونية ، معذبتك الى الابد ، ومجرد وهم لا اساس له سافك الى فندقها الدامي ثم رمى بك الى برائن هذه الحجرة الفائلة » (ص ١٤٤ ، ١٤٥) .. كل هذه الصفات والاحالات تعطيها دلالات تخرج بها من محدودية الاطار الشخصي الى افاق رمزية وشمولية تحت ابرز ملامحها من شديد التصاقها بذكريات الماضي والام .. ومن كونها الصورة الراهنة للواقع كما هو كائن ، وبكل ما فيه من تناقضات .. ومن ثم يجيء اغتياله لها في النهاية ، ثورة منه على هذا الواقع .

(٩) الهام .. والحلم

تلوح الهام دائما مرتبطة بالاب المفقود ومتناقضة في الان نفسه مع جريمة .. اذ ان الهام تمثل في المعادلة الروائية الوجه المرتجى للواقع والوعد بالعمل والسلام والحب النقي ... لذلك فهي من اقصى الجنوب بينما صابر وجريمة مفتقران الى هاتين الصفتين ، وهي الى جانب كل بينما صابر وجريمة مفتقران الى هاتين الصفتين ، وهي الى جانب كل هذا تمايزة عن جريمة رغم جمال كل منهما وصابر معها ، والجمال هنا هو السمة المشتركة او الرابطة الفنية الفائلة بوجود علاقة ما بين هؤلاء الثلاثة - بنوع جمالها الشديد الشفافية كملك « هي طاقة غير لطيف يدعو الى استباحة الاسرار ، ليست كالنار التي صهرته بالفندق » (ص١٤١) .. « وزاد انتعاشا باشعاعاتها التي ترفعه الى مستوى غير مألوف في علاقته مع الناس » (ص١٤٢) لذلك فان « تجريدتها من الثياب غير مجد لان سحرها لا يستقر بموضع بالذات ، شائع كضوء القمر » (ص١٤٤) .. ومن ثم فانه يعتبرها من البداية واحة يستظل بيئتها كلما انهكت عذابات البحث « وطريق البحث شاق ومحرق وطويل فيحتاج الى استراحة من الظل الظليل » (ص١٥٥) ولذلك فانها « تنزوي في ركن كالنم عند طفيان الجريمة » (ص١٥٥) ولانها قريبة جدا على واقسه الكائن بالفعل ، فانه يجد نفسه مضطرا الى اختلاق الاكذوبة لتلوا الاخرى ليحتفظ بها . خاصة وانه يعرف انها « ليست على شفا هاوية مثلك . وليست جائعة الى الحرية والكرامة والسلام . ولا يهددها ماض ملوث

قد ينقلب في اي لحظة فيصير لها المستقبل الوحيد » (ص٧٥) .. « ولذلك فان الهام وان قامت في حياته كالنار ، الا انها اقلقت مخاوفه وعقده . وزعزت اركان العالم الذي بناه لنفسه واطمان اليه » (ص٧٦) ولذلك ايضا « فانها تعطيك كل شيء صادق ، وانت لم تعطها الا حزمة من الاكاذيب » (ص٨٤) .. كل ذلك لان الهام سماء صافية يجري تحتها الامان . وجريمة سماء ملبدة بالفيوم تنذر بالارعد والبرق والمطر ولكنها ايضا سماء الاسكندرية المحبوبة » (ص٨٧) .. و « العقل ينصح بان يهجر الهام ولكنه لا يستطيع . هي كآببه فيما تعد به وفي انها حلم عسير التحقيق » (ص٩١) .. العقل هو الذي ينصح هنا بالتخلي عن ذلك الحلم الجميل المذتر بالصمت . الواعد بالمعجزات ولكنه لا يقدر .. كل الذي يستطيعه هو التذكر الدائم للواقع .. لجريمة كلما عايش الحلم .. الهام .. لحظات .. ولما كان التقاؤه بهذا الحلم غير قسائم على اساس متينة ، اذ قام من البداية على اختلاق الاكاذيب ، كان محالا ان يستمر التزاوج بين صابر وبينه ، خاصة في وجود الواقع الكائن فعلا والوثيق العلاقة بصابر الى درجة الزواج منه بوثيقة من دم .. ومن ثم فان كافة الحلول الرائعة المعجزة التي تقدمها الهام للآزمة ، ما تلبث ان تلتهمها الحلول الدامية التي تقدمها جريمة ، اذ جاءت حلول الحلم .. بعد فوات الوقت ، ومتأخرة عن الحلول الدامية التي قدمها الواقع الكائن بالفعل .. لا ذلك الذي ينبغي ان يكون ... وفي النهاية يذرف صابر على هذا الحلم «الدمعة الثانية في عمري كله» (ص١٧٤) .. بعد ان اختص الام بالدمعة الاولى .. وبقيت الدمعتان الكبيرتان .. مصباحا يلقي دقات الضوء على احداث الرواية .



بعد ان تعرفنا على ملامح كافة الشخصيات الرئيسية في الرواية بالدرجة التي تلقي الضوء على طبيعة خريطة العلاقات الانسانية الكائنة بينهم ، والتي يلوح داخلها كل منهم بتصرفاته وانفعالاته ومشاركاته واحاسيسه ، ابنا حقيقيا ومخلصا لواقعه الدامي الذي يتمزق ايسن جيلنا فيه .. وبصفة عامة فان الرواية ككل قد استطاعت ان تكون صدورا حقيقيا عن المرحلة الاخيرة في واقعا العربي ، حيث جسدت بحق ازمة الصمت الذي يسربل كل شيء في الواقع ويدثر خطى كافة الذين يحاولون اجتياز حدوده ، كما جسدت في الان نفسه ازمة الجوع الى الحرية والبحث المأزوم عنها ، ومن ثم فانها قد ساهمت في رسم معالم (الطريق) الى حل هذه الازمات من جهة ، وكشفت الكثير من جوانب الواقع للقارئ العادي وعمقت رؤيته من خلال الحالة الحسية التي تتركها في النفس المعيشة الحقيقية لاحداثها . مؤكدة الدور الريادي الذي يقوم به فن نجيب محفوظ العظيم في واقعا الراهن .

صبري حافظ

القاهرة

فندق كلاريدج

شارع سليمان بالقاهرة

موقع ممتاز واسعار معتدلة

بإدارة: حلمي المباشر